وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

# أصل التدبر ودلالاته

د. عبدالرزاق مرزوكَ
مقالات للكاتب

تاريخ الإضافة: **2008/02/28** ميلادي - **1429/2/20** هجري
زيارة: **4**

---

## تقديم

الحمد لله الذي جعل ذِكرَنا في كتابه، وعلَّق فلاحَنا على اتباعه، والصلاة والسلام على خير من تدبره، وأعلى لواءه ونصره، وعلى آله الأنقياء، وصحابته الأتقياء، ومن سلك سبيلهم من الأوفياء.

وبعدُ، فإن ذكر التدبر ودلالاته خيرُ ما نُتِمُّ به حديثَنا السالف عن التفكر ومعانيه، إذ إن مجالاته شتى؛ لكن أشرفها وأرفعها على الإطلاق آي الكتاب المنزل، وما انبنى عليها، وتعلق بها من سائر المجالات، وإن أشرف المتفكرين وأعلاهم قدرًا من اتخذ آيات الكتاب لفكره مسارًا، وعلق تصوره بمراجعها السليمة، وقواعدها المتينة.

## أصل التدبر ومعانيه في العربية

أصل التدبر من: دَبَرَ –بفتح الدال والباء–، وجُلُّه في قياس واحد، وهو : آخر الشيء، وخلفه؛ خلاف قُبُله**[1]**.

ووجوه استعماله في العربية شتى؛ منها**[2]**:

(ا) – الرجوع والتولي، يقال: دبر الرجل وأدبر؛ أي ولى وشيَّخ، ومنه قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ} [المدثر: **33**]، أي تبع النهار قبله.

(ب) – الذهاب، ومنه: أمس الدابر والمدبر؛ أي الذاهب، قال الشاعر:

وَأبي الذِي تَرَكَ الْمُلُوكَ وَجَمْعَهُمْ     بِصُهَابِ هَامِدَةٍ كَأمْسِ الدَّابِرِ[3]

ويقال: هيهات!.. ذهب فلان كما ذهب أمس الدابر، وهو الماضي لا يرجع أبدا.

(ج) – التحول، ومنه دبرت الريح؛ أي تحولت دَبورا – بفتح الدال –، قال الأعشى**[4]**:

لَهَا زَجَلٌ كَحَفِيفِ الْحَصَا     دِ صَادَفَ بِاللّيْلِ رِيحًا دَبُورَا[5]

والريح الدبور: الريح التي تقابل الصَّبا والقَبول – بالفتح –، وهي ريح تهب من نحو المغرب، والصبا تقابلها من ناحية المشرق **[6]**.

(د) – الاتباع من وراء، يقال: دبره يدبره دبورا – بضم الباء – تبعه من ورائه، ومنه دابر الشيء؛ أي آخره، وأصله، كما في قوله تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: **45**]؛ أي استؤصل آخرهم، قال الشاعر:

فِدًى لَكُمَا رِجْلَيَّ أمِّي وَخَالَتِي     غَدَاةَ الْكُلَابِ إِذْ تُحَزُّ الدَّوَابِرُ [7]

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أي يقتل القوم؛ فتذهب أصولهم، ولا يبقى لهم أثر، وهو كدُبُر الأمر ودُبْره – بضم عينه وتسكينها –.

قال الكميت:

أَعَهْدَكَ مِنْ أُولَى الشَّبيبَةِ تَطْلُبُ      عَلَى دُبُرٍ ؟ هَيْهَاتَ شَأْوٌ مُغَرِّبُ [8]

ودابر العيش: آخره أيضا، قال الشاعر:

وَمَا عَرَّيْتُ ذَا الْحَيَّاتِ إلاّ      لِأَقْطَعَ دَابِرَ الْعَيْشِ الْحُبَابِ [9]

ودابر الرجل: عقبه، وتابعه يخلفه، ويجيء بعده، كما تقول: دبرني فلان، وخلفني أي جاء بعدي، ومنه قراءة من قرأ: {وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ} [10].

وأما التدبر فأصله : دبَّر – بالتشديد – الأمر، وتدبره: "نظر في عاقبته، واستدبره: رأى في عاقبته ما لم يره في صدره، وعرف الأمر تدبرا؛ أي بِأَخَرَة [11] " [12].

قال جرير:

وَلاَ تَتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّى يُصِيبَكُمْ      وَلاَ تَعْرِفُونَ الأمْرَ إلاَّ تَدَبُّرَا [13]

والتدبر والتدبير سواء، ووجوه استعمالهما في العربية ثلاثة [14]:

الأول: النظر إلى ما تؤول إليه عاقبة الأمر، والتفكر فيه، كما قال أكثم بن صيفي[15] لبنيه: يا بني لا تتدبروا أعجاز أمور قد ولت صدورها.

الثاني: عتق الرجل عبده بعد موته، فيقول: أنت حر بعد موتي؛ فهو مُدبَّر؛ من دبَّرت العبد؛ إذا علقت عتقه بموتك.

الثالث: أثْر الحديث، والتحديث به عمن يرويه، كما في حديث سلام بن مسكين؛ قال : سمعت قتادة يحدث عن أبي الدرداء يدبره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ شَمْسُهُ إلاَّ وَكَانَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ..." الحديث [16].

## التدبر في القرآن

ورد استعمال الأصل (دبَرَ) في القرآن الكريم بصيغ شتى، في آي عدة؛ بلغت أربعًا وأربعين [17]؛ لا تخرج عن المعاني السبعة التالية، وقد مثلت لكل معنى بالآية أو الآيتين؛ ليقاس على المثال ما لم أذكر من سائر الآيات.

الأول: (الظَّهر)، وقد ورد بصيغة المفرد في خمس آيات [18]؛ منها قوله تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ..} [يوسف: 25].

وقوله تعالى عن التولي عند القتال: {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ..} [الأنفال: 16].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وورد بصيغة الجمع في اثنتي عشرة آية [19]؛ منها قوله تعالى: {وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ} [آل عمران: 11].

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد: 25].

الثاني: (الرجوع)، وقد ورد في سبع آيات؛ منها قوله تعالى عن موسى عليه السلام: {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} [النمل: 10]، وقوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ} [20].

الثالث: (التولي والعدول)، وقد ورد في خمس آيات منها قوله تعالى: {كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى} [21].

الرابع: (الأصل والأثر)، وقد ورد في أربع آيات منها قوله تعالى: {وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}[22].

الخامس: (آخر الأمر)، وقد ورد في موطن واحد هو قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق: 40].

السادس: (التدبير)، وقد ورد في أربعة مواطن منها قوله تعالى: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} [23].

السابع: (التدبر)، وقد ورد في أربع آيات هي قوله تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [النساء: 82]، وقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ..} [المؤمنون: 68]، وقوله تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ} [ص: 29]، وقوله تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: 24].

وهذه المعاني هي التي ذكرها الفقيه الدامغاني في كتابه [24]؛ ما عدا السادس، وجعل مكان التولي والعدول: الدين الباطل، ومكان الرجوع: الذهاب، ومكان الأصل والأثر: الغابر، ومكان التدبر: التفكر.

أما الدين الباطل، فمثل له بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد: 25]، قال: (يعني دين آبائهم، وهم اليهود، كقوله تعالى في سورة الإسراء: {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} [الإسراء: 46]؛ يعني رجعوا إلى أصنامهم وعكفوا على عبادتها) [25].

وهذا المعنى أخص من التولي والعدول؛ لأن الرجوع إلى الأصنام والعكوف على عبادتها مجرد نوع من أنواعه؛ فلا يشمل مثل قوله تعالى عن فرعون: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات: 22]، قال الإمام الشوكاني رحمه الله: "أي تولى وأعرض عن الإيمان (يسعى) أي يعمل بالفساد في الأرض، ويجتهد في معارضة ما جاء به موسى" [26].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وأما معنى الذهاب، فليس كمعنى الرجوع؛ وإن كان سياق الآيات التي ورد فيها يدفع ما بينهما من التباين في اللغة؛ إذ كل رجوع ذهاب، وليس كل ذهاب رجوعًا.

قال الإمام الشوكاني –رحمه الله – في بيان معنى قوله تعالى: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} [الأنبياء: 57] –: "أي بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين" [27]، فجمع بين الذهاب والرجوع في نسق، ويدل على لزوم التخصيص قوله تعالى: {فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ} [القصص: 31]، فإن قوله (أقبل) لا يقال إلا للذاهب راجعا، وأيضا؛ فإن الذهاب: "السير والمرور" [28]، أما الرجوع فهو: "المصير إلى الموضع الذي كان فيه قبل، والانصراف" [29]، والمرجوع: جواب الرسالة كما قال الشاعر:

سَأَلْتُهَا عَنْ ذَاكَ فَاسْتَعْجَمَتْ لَمْ تَدْرِ مَا مَرْجُوعَةُ السَائِلِ [30]

ويجوز أيضا استثناء معنى الهزيمة من عموم معنى الظهر الأول؛ لأنه مجرد صورة له لا تمنع دخول غيره فيه، فالفرق صريح بين قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ..} [الأنفال: 50]، وقوله تعالى: {وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [آل عمران: 111]، ووجهه أن معنى الظهر في الآية الأولى متعلق بنفس الضارب دبره؛ لا يتعداه، ومعناه في الآية الثانية متعلق بأثر خارجي؛ ألجأ العدو إلى تولية دبره لمن دحره انهزاما وانفلالا.

ويؤيده قول الشوكاني رحمه الله –في قوله تعالى: {فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ}–: "أي منهزمًا، وانتصاب مدبرًا على الحال" [31].

ومنه الدبْرة – بالإسكان والتحريك – وهي : الهزيمة في القتال [32].

قال ابن منظور: "وهو اسم من الإدبار، ويقال: جعل الله عليهم الدبرة؛ أي الهزيمة، وجعل لهم الدبرة على فلان؛ أي الظفر والنصرة" [33].

وصح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: "انتهيت إلى أبي جهل؛ وهو صريع، وعليه بَيْضَتُه [34]؛ ومعه سيف جيد ومعي سيف رديء؛ فجعلت أنقُف[35]رأسه بسيفي، وأذكر نقْفا كان ينقف رأسي بمكة حتى ضعفت يده، فضربت يده، فوقع السيف من يده، فأخذته، فرفع رأسه فقال: على من كانت الدبرة لنا أو علينا؛ ألست رويعينا بمكة فقلت: أي عدو الله! قد أخزاك الله، قال: هل أَعْمَدُ من رجل قتلتموه [36].. ؟!.

ثم كشفت المِغْفَر[37]عن رأسه؛ فضربت عنقه، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: قتلت أبا جهل، فقال: آلله الذي لا إله إلا هو؟... قلت: آلله الذي لا إله إلا هو؛ حتى حلفني ثلاثا، قال: انطلق فاستثبت! فانطلقت؛ فأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك، فأخبرته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انطلق فأرني!، فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه قال: هذا فرعون هذه الأمة" [38].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وأما الآيات الأربع التي ورد فيها لفظ التدبر، فثنتان منها مكيتان، وثنتان مدنيتان[39]، وهذا ترتيب نزولها مع بيان بعض معانيها:

الآية الأولى: قوله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: 29]، فهذا بيان للغاية العظمى التي من أجلها نزل القرآن، ولا يزال الخطاب فيها مقتصرًا على الحث والإغراء والإخبار عن الكتاب بنعوت وصفات بعضُها شاهد على أنه ميسر للذكر والتناول، وبعضها أمارة على أنه حقيق بالتأمل والتدبر.

فهو كتاب؛ أي نظام[40]حاله من الوضوح والجلاء والتمام والغناء بحيث لا يعسر إحرازه وتلقيه، ويشق على اللبيب كف سماعه وتخطيه، فجمع له بين مسوغي التنكير: الوصف والإخبار لئلا يستعجب ويستراب به.

وصورة بلوغه إلى الخلق: إنزال إلى نبي مجتبى ووحي إلى رسول مصطفى؛ ففيها من كمال تدبير مُنزله عز وجل وعظيم حكمته وتقديره ما يغري بتدبر الكتاب المنزل وتعزيره.

وفيها الإشارة إلى أنَّ إنزالَه بلسان رجل من المخاطبين لبث فيهم عمرًا لا يكذبونه عونٌ لهم على الإيمان والاستجابة أول أمرهم بتدبره، كما قال تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [الدخان: 58]؛ قال العلامة الزمخشري: "ومعناها: سهلناه حيث أنزلناه عربيا، بلسانك: بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا" [41]؛ ففيه رحمتهم وإقامة الحجة عليهم.

وفي وصفه بأنه مبارك إشارة إلى اشتماله على نفع المخاطبين، وأن أصل النفع في غيره معدوم، لا سيما وأن نفع الإيمان بالذي أنزله عز وجل كامل طارد لكل ضرر؛ كضرر شركهم وغفلتهم، فحثهم على تدبر الكتاب رفقًا بهم وسوقًا لهم إلى ما فيه محض منفعتهم.

الآية المكية الثانية: قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [المؤمنون: 68–70].

وفي هذه الآية تحول الخطاب إلى العتاب، وشفع السياق الاستفهام بالإنكار لما سبق في الآية الأولى من الإعذار بذكر خصال الكتاب الموجبة لتدبره.

قال سيد قطب رحمه الله: "إن مثل ما جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك من يتدبره أن يظل معرضا عنه، ففيه من الجمال، وفيه من الكمال، وفيه من التناسق، وفيه من الجاذبية، وفيه من موافقة الفطرة، وفيه من الإيحاءات الوجدانية، وفيه من غذاء القلب، وفيه من زاد الفكر، وفيه من عظمة الاتجاهات، وفيه من قويم المناهج، وفيه من محكم التشريع.. وفيه من كل شيء ما يستجيش كل عناصر الفطرة ويغذيها ويلبيها {أفلم يدبروا القول}؛ إذن فهذا سر إعراضهم عنه؛ لأنهم لم يتدبروه"[42] .

وقوله تعالى: {أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون} فيه حسم لشبهة لو أمكنهم لتعلقوا بها، ونشر لدخيلة نفوسهم أن سبب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إعراضهم كراهية للحق صريحة، فلا عجب أن صار الخطاب ملامة وعتبى بعد أن كان دعوة ورغبى كما في قوله في الآية الأخرى: {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يونس: 16].

الآية المدنية الأولى: قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82]، والخطاب فيها للمنافقين والمجادلين في ربانية الكتاب في كل حين؛ بعبارة ليس فيها تحكم أو إلزام بما يدفعه المناظر المنصف المحتكم إلى البرهان؛ بل فيها غاية إنصاف الإنسان، وتقدير عقله ومداركه.

قال سيد قطب رحمه الله: "وهنا يعرض عليهم القرآن خطة؛ هي غاية ما يبلغه المنهج الرباني من تكريم الإنسان والعقل الإنساني واحترام هذا الكائن البشري وإدركه الذي وهبه له الخالق المنان؛ يعرض عليهم الاحتكام في أمر القرآن إلى إدراكهم هم، وتدبر عقولهم.،. ويعين لهم منهج النظر الصحيح كما يعين لهم الظاهرة التي لا تخطئ إذا اتبعها ذلك المنهج، وهي ظاهرة واضحة كل الوضوح في القرآن من جهة، ويمكن للعقل البشري إدراكها من جهة أخرى.،. ودلالتها على أنه من عند الله دلالة لا تمارى"[43].

وللإمام الزمخشري في هذا الموطن كلام سديد يوجه به إلاهية الكتاب أحسن توجيه؛ قال: ".. فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائتة لقوى البلغاء، وتناصر صحة معان وصدق إخبار، علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيرُه، عالم بما لا يعلمُه أحد سواه....؛ فإن قلت: أليس نحو قوله تعالى: {فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} [الأعراف: 107]، {كَأَنَّهَا جَانٌّ} [النمل: 10]، {فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: 92]، {فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ} [الرحمن: 39] من الاختلاف؟ قلت: ليس باختلاف عند المتدبرين" [44].

الآية المدنية الثانية: قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: 24]، وهي لوماء جديدة عسيرة، وكاشفة شديدة جمع فيها بين الإنكار ونشر ما سعى المنافقون إلى طيه من فساد القصد وخبث السريرة، فتدبر القرآن لا يلين لمن كانت هذه حاله؛ لأن محل قرار الذكرى من نفسه مقفل، كما قال الشاعر: [45]

تَرَى عَيْنُهُ مَا فِي الْكِتَابِ وَقَلْبُهُ      عَنِ الدِّينِ أعْمَى وَاثِقٌ بِقُفُولِ[46]

لذلك ذكر حالهم –من الاستنكاف– الموجبة لقسوة القلب واستحقاق اللعنة قبل الإنكار عليهم فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ..} [محمد: 23]؛ فهو أعظم وأجل من أن يصيب حظ نوره وثمرة هدايته القبيل والدبير.

قال سيد قطب رحمه الله: "ويتساءل في استنكار (أفلا يتدبرون القرآن).،. وتدبر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير (أم على قلوب أقفالها؟)؛ فهي تحول بينها وبين القرآن، وبينها وبين النور؟.،. فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور"[47].

This file was downloaded from QuranicThought.com

ومن دقيق الإشارة لأسرار هذه الآية قول الزمخشري رحمه الله: "وأم بمعنى بل[48]، وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر"[49].

ولا يخفى محل التفكر من معنى التدبر على من تأمل دلالاته في اللغة والقرآن، وأنه كمحل الشرط من مشروطه؛ لذا وجب ذكر ذلك قبل الحديث عن فضل التدبر وآدابه وثمرته.

---

[1] مقاييس اللغة: دبر.

[2] اللسان: دبر.

[3] في اللسان (أمس – دبر – صهب) بلا نسبة، وكذا قال إميل يعقوب في (المعجم المفصل: 3 / 441)، وصُهابُ: موضع جعلوه اسما للبقعة.

[4] ديوان الأعشى: ص 149.

[5] الدبور في هذا البيت صفة، وتكون اسما أيضا؛ كما في قول الشاعر:

رِيحُ الدَّبُورِ مَعَ الشَّمَالِ، وَتَارَةً        رِهَمُ الرَّبِيعِ وَصَائِبُ التَّهْتَانِ

والرِهَمُ –بكسر الراء وفتح الهاء– جمع رِهْمَة –بكسر الراء–، وهي المطر الضعيف الدائم الصغير القطر، ويجمع أيضا على رهام، وأرهمت السماء والسحابة: أتت به. (اللسان: رهم).

والتَّهْتَانُ بفتح التاء– مصدر هَتَنَ، من هتنت السماء: انصبت، وهو ما فوق الهطل، أو الضعيف الدائم، أو مطر ساعة؛ ثم يفتر ثم يعود، لذلك قيده الشاعر بالصائب. (القاموس المحيط: هتن).

[6] قال الجوهري رحمه الله في الصحاح (صبا): "والصبا ريح، ومهبها المستوي أن تهب من موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، ونَيِّحَتُها الدبور؛ تقول منه: صَبَتْ تَصْبُو صُبُوًّا.

وتزعم العرب أن الدَبور تُزعج السحاب وتُشخصه في الهواء ثم تسوقه، فإذا علا كشفت عنه واستقبلته الصَّبَا فردت بعضه على بعض حتى يصير كِسْفا واحدا، والجنوب تُلحق روادفه به وتمده من المدد، والشَّمال تمزق السحاب" اهـ.

وقوله (نَيِّحَتُها) معناه التي تهب طولا، وكل ريح استطالت أثرا فهبت عليه ريح طولا فهي نيحته، فإن اعترضته فهي نَسِيجَتُه.

[7] نسبه في اللسان (دبر) لوعلة، وهو في مقاييس اللغة (دبر) بلا نسبة.

والكُلاب –بضم الكاف– ماء له يوم.

[8] ديوان الكميت 1 / 97، والشأو: الغاية، ومُغَرِّبُ –بضم الميم، وتشديد الراء المكسورة–، أي: طلبة عجيبة، وغاية بعيدة النيل.

[9] نسبه في اللسان (دبر) لمعقل بن خويلد الهذلي، وذو الحيات: اسم سيفه، ودابر العيش آخره؛ يقول: وما عريته إلا لأقتلك.

[10] هذه قراءة الجمهور، وقرأ نافع، وحفص، وحمزة: (إذ –بغير ألف– أدبر –بزنة أكرم–) على أنه ظرف لما مضى من الزمان، ودبر وأدبر لغتان؛ كما يقال: أقبل وقبل الزمان. اهـ من فتح القدير 5 / 470.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

[11] الأخرة –بفتح الهمزة والخاء والراء–: آخر كل شيء، ويستعملها النقاد أحياناً في بيان أحوال الرواة؛ فيقولون (اختلط بأخرة) أي في آخر عمره، وتقول بعته بأخرة وبِنَظِرَةٍ؛ أي بنسيئة.

[12] اللسان: دبر.

[13] ديوان جرير: ص 479.

[14] اللسان: دبر.

[15] أكثم بن صيفي بن رباح بن الحارث التميمي، الحكيم المشهور، وأحد المعمرين، وهو عم حنظلة بن الربيع بن صيفي الصحابي المشهور، روي في إدراكه النبيَّ صلى الله عليه وسلم وإسلامه أخبار لا تصح؛ ذكرها الحافظ في الإصابة (1 / 209 – 210)، وبين وهاءها، منها أنه المعني بقوله تعالى منسورة النساء (آية 100) {ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله}، لذلك ترجمه الحافظ في القسم الثالث من حرف الألف.

[16] حديث صحيح؛ تمامه: (ما من يوم طلعت شمسه إلا وكان بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه ما خلق الله كلهم غير الثقلين: "يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى"، ولا آبت الشمس إلا وكان بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين: "اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا"، وأنزل الله في ذلك قرآنا في قول الملكين: "يا أيها الناس! هلموا إلى ربكم" في يونس: {والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}، وأنزل في قولهما: "اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا": {والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى}.. إلى قوله: {للعسرى}) [صحيح الترغيب والترهيب رقم 917].

[17] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص 252.

[18] في سورة يوسف (25، 27، 28)، وفي سورة القمر (45)، وفي سورة الأنفال (16)، والتوبة (25).

[19] في سورة آل عمران (111)، والنساء (47)، والمائدة (21)، والأنفال (15، 50)، والحجر (65)، والإسراء (46) والأحزاب (15)، ومحمد صلى الله عليه وسلم (25، 27)، والفتح (22)، والحشر (12).

[20] المدثر: 33، وهو أيضا في سورة القصص (31)، والأنبياء (57)، والصافات (90)، وغافر (33)، والطور (49).

[21] المعارج: 17، وباقي مواطنه:

المدثر (23)، والنازعات (22)، والنمل (80)، والروم (52).

[22] الأنفال: 7، وباقي مواطنه: الأنعام (45)، والأعراف (72)، والحجر (66).

[23] الرعد: 2، وباقي مواطنه: يونس (3، 31)، والسجدة (5).

[24] قاموس القرآن: ص 171.

[25] قاموس القرآن: ص 171.

[26] فتح القدير 5 / 535.

[27] فتح القدير 3 / 582.

[28] اللسان: ذهب.

[29] الفروق في اللغة: ص 300، والقاموس المحيط: رجع.

[30] البيت لحسان بن ثابت، وهو في ديوانه: ص 220.

[31] فتح القدير 4 / 239.

[32] اللسان: دبر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

[33] نفسه.

[34] البيضة سلاح يوضع على الرأس.

[35] النقف – بإسكان القاف – كسر الهامة عن الدماغ، أو ضربها أشد ضرب، أو برمح، أو عصا.

[36] أعمد: تفضيل من عمد؛ أي هلك، يقال: عمد البعير يعمَد عمَدا – بالتحريك – إذا ورم سنامه من عض القتب فهو عميد، ويكنى بذلك عن الهلاك، وقيل: هو أن يكون سنامه وارما، فيحمل عليه الشيء الثقيل فيكسره فيموت فيه شحمه.

والمعنى: هل زاد على سيد قتله قومه، قال الشاعر:

وأعْمَدُ مِنْ قَوْمٍ كَفَاهُمْ أخُوهُمْ صِدَامَ الأعَادِي حِينَ قَلّتْ بُيُوتُهَا

أي: لا زيادة على فعلنا؛ فإننا كفينا إخواننا أعاديهم.

ويزيد هذا المعنى وضوحا قوله في رواية مرسلة (فلو غير أكار قتلني)، والأكار – بتشديد الكاف – الزراع، وعنى بذلك أن الأنصار أصحاب زرع؛ فأشار إلى تنقيص من قتله منهم بذلك. اهـ من الفتح مختصرا (7 / 294 – 295).

وفي هذا الحديث ما عليه الكافرون من العناد، والإصرار على محق المؤمنين، وأن فرصة ذلك متى سنحت لهم اغتنموها؛ لا يمنعهم عهد، ولا يدفعهم ميثاق؛ أقوياء كانوا أو ضعفاء، غالبين أو مغلوبين، كما قال تعالى: {كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله} [براءة: 7].

وأن عداوتهم للمؤمنين وبغضهم دينهم ديدنهم، وأعز ما ينفقون فيه أعمارهم وأموالهم وأنفاسهم إلى أن تصير إليهم الدولة والسلطان، كما قال تعالى: {كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة} [براءة: 8].

وأن ما يبذلونه أحيانا من الرغبة في مسالمة المؤمنين والحرص على موادعتهم ومساكنتهم كيد محض، وخديعة بحتة، كما قال تعالى: {يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون} [براءة: 8].

[37] المغفر – بكسر الميم كمنبر – درع من الدروع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع بها المتسلح.

[38] أخرجه البخاري في كتاب المغازي من صحيحه مختصرا، باب قتل أبي جهل (7 / 293 فتح)، وأخرجه الطبراني بطوله في المعجم الكبير (9 / 83)، وقوى سنده الأرناؤوطان في تعليقهما على زاد المعاد (3 / 185).

[39] مكي القرآن ما نزل قبل الهجرة ولو بالمدينة، ومدنيه ما نزل بعد الهجرة، ولو بمكة.

[40] قال الراغب رحمه الله في مفرداته (ص 699): "الكَتْب – بإسكان التاء – ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض في اللفظ، فالأصل في الكتابة: النظم بالخط لكن يستعار كل واحد للآخر، ولهذا سمي كلام الله – وإن لم يكتب – كتابا".

[41] الكشاف 4 / 276.

[42] الظلال 4 / 2474.

[43] الظلال 2 / 721.

[44] الكشاف 1 / 529.

[45] اللسان (قفل) بلا نسبة.

[46] جمع قُفْل – بضم القاف –، وهو ما يغلق به الباب مما ليس بكثيف ونحوه، والقُفُول المصدر من معانيه: الرجوع من السفر، واليُبُوس.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

[47] الظلال 6 / 3297.

[48] وهي المسماة عند النحويين: أم المنقطعة، وبذلك سماها الشوكاني في فتح القدير (5 / 55)، وهي هنا خالصة لمعنى الإضراب لأن المعنى على الإخبار عن قلوبهم بأنها مقفلة، وعد الإمام ابن هشام في المغني (1 / 45) من شواهده قول الأخطل:

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أمْ رَأيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظّلاَمِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالاَ

ووجهه في الآية أن الهمزة في قوله (أفلا يتدبرون القرآن) للإنكار، فهي بمثابة النفي، وشرط أم المتصلة أن لا تقع بعده، فتكون نافية كالهمزة، ويطلب بهما التعيين؛ كما في قول زهير:

وَمَا أدْرِي وَسَوْفَ إخَالُ أدْرِي أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ

قال ابن هشام في المغني (1 / 41): " وتسمى أيضا معادلة لمعادلتها للهمزة في إفادة الاستفهام ".

[49] الكشاف 4 / 317.

وكان الفراغ من تقييده وتنقيحه برباط الفتح ضحى يوم الأحد سابع عشر صفر 1429 هـ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

This file was downloaded from QuranicThought.com